

الزردة وأغاني النسيان لآسيا جبار " ...تحسين للهوية وتجريم لسياسة الاستعمار".

بن عزوزي عبد الله

جامعة مصطفى اسطنبولي معسكر.

واجهة إيديولوجية تعبر عن تطلعات الشعوب وحق تقرير مصيرها وتدعم حركات التحرر وتسليط الضوء على التطورات السياسية الحاصلة في المجتمعات.

عرفت السينما العالمية خاصة في مرحلة الستينيات ومطلع السبعينيات موجة من الأفلام السياسية التي استلهمت مواضيعها من التطورات سياسية الحاصلة في العالم مما جعلها مادة كتاب سيناريوها كما خاصة السينما الأوروبية التي قدمت مجموعة رائعة من الأفلام التي اقتبست مواضيعها من عدة وقائع سياسية مثل ازدياد النضال ضد الحرب في الفيتنام وأحداث القارة الأفريقية .. الخ ووصلت موجة هذه الأفلام الى السينما الأمريكية التي عرفت هي الأخرى رصيда كبيرا منها، حيث اعتمد كتابها أيضا على أحداث سياسية هامة منها «الوجه المعرض للإهانة» للمخرج الأمريكي مارتن ريت وفيلم «راعي البقر الكهربائي» للمخرج سيدني بولاك... وغيرها.2

ووصل تأثير ذلك على السينما العربية التي أصبحت هي الأخرى تعرف انتاجا كبيرا للأفلام السياسية منها السينما المصرية والسورية التي شهدت في عقد السبعينات ولادة الفيلم السياسي الجاد.... حيث عرفت أكثر من فيلم روائي طويل تناول مادة سياسية وعالجها بلغة سينمائية جادة ثم جاء عقد الثمانينات تنويعا لعقد السبعينات من حيث انتاج المزيد من الأفلام التي

The french colonisation Policy which was Practised in Alegria formed a central subject in revolutionary algerian cinema which took reverse subjects against the colonial policy and that what made the cinema as a mean of fighting against the colonisation including a revolutionary and political speech which reverse the hope and the right of deciding the Aspirations of people.

« zerdah and aghani alnissian of assia djebbar » is a vital sample for the revolutionary movies which are against the colonialisational policy where this movie portrayed the forms of violations and wrong made by the french colonisation and it also shown the crimes of the french colonisation through a stream and revolutionary speech.

تعد السينما فنا يحاكي الحياة والواقع اليومي شأنه شأن بقية الفنون التي تقتنص مادتها من القضايا التي يشهدها العالم والحياة اليومية للإنسان، التي تعرف أحداثا اجتماعية وتوترات وقضايا سياسية تم الفرد والرأي العام في المجتمع والعالم، وهو ما يجعلها مصدرا مهما لكتاب السيناريو في أفلام تحمل أبعادا سياسية وفكرا إيديولوجيا وقيما اجتماعية حساسة «فالإنتاج السينمائي إنما هو انعكاس موضوعي لعناصر الحياة الاجتماعية والسياسية»¹، مما جعل السينما

طرح موضوعات سياسية جادة برؤية تقديمية وفكرية سليمة.³

ونظرا لأن السينما عموما تبقى فنا يلعب دورا توعويا وتنويريا مهما على نطاق واسع من حيث «نقل معطيات الفكر والحياة بأدوات أكثر نفاذا وفاعلية في التأثير على فكر ووجدان الجماهير»⁴ فقد أصبحت وسيلة مهمة من الوسائل الاعلامية التي توظف لأغراض سياسية توعوية مما جعلها واجهة تعكس تطلعات الشعوب وايدولوجياتهم خاصة وأن الأفلام السينمائية عاجلت الكثير من القضايا التحررية وردود أفعال الشعوب تجاه القضايا المصرية لأوطانهم والأوضاع السياسية المتوترة التي تشهدها الدول على اختلافها اضافة الى دعمها لحركات التحرر بوجهات نظر سياسية مختلفة .

انتهجت السينما الجزائرية هي الأخرى توجهها سياسيا خاصة السينما الثورية التي تبنت أفكارا ومواضيع حساسة جدا اذ عبرت عن سياسة المستعمر وممارساته التعسفية والشنيعية في حق الشعب. حيث حاول السينمائيون الوقوف في وجه مساعي فرنسا السياسية بأفكار ايدولوجية معاكسة من خلال فضح سياسته ردا على مغالطات المستعمر فكانت بذلك واجهة ايدولوجية تعكس تطلعات الشعوب المستضعفة وتبدي نظرهم القاتلة تجاه السياسة الاستعمارية المنتهجة في حقهم .

من المؤكد أن أي استعمار الا وينتهج سياسة استيطانية في حق الشعوب المستضعفة تتمثل في تجريدها من هويتها والقضاء على مقوماتها والتغلغل حتى في عاداتها وتقاليدها وهو ما ينطبق على سياسة الاستعمار الفرنسي الغاشم في حق الشعب الجزائري، مما ترك تأثرا واضحا وسط افراد المجتمع الذين كانت لهم ردة فعل قوية ضد السياسة الاستعمارية آنذاك.⁵

وبمأن السينما كانت من بين الوسائل النضالية والثورية المعبرة عما يجول بجوف نفسية الشعب وتحاكي تلك التوترات والتطورات السياسية الحاصلة بالصورة والصوت -سواء ابان الثورة أو بعدها- فقد اعتمدت هي الأخرى اتجاها ايدولوجيا سياسيا ردا على اللعبة السياسية لفرنسا، اذ حاول مخرجو السينما الجزائرية والثورية على وجه الخصوص فضح جرائم المستعمر والوقوف في وجه مساعيه الرامية الى تشييت هوية وخصوصية هذا الوطن وكذا طمس الشخصية الوطنية واقتلاعها من جذورها خاصة وأن السينما عموما تعتبر من بين أهم وسائل الاعلام التي شكلت منبرا مهما لطرح القضايا السياسية والاجتماعية التي تهم الرأي العام المحلي والعالمي.

يظهر هذا الاتجاه في الأفلام ذات الصيغة الوثائقية أو التسجيلية التي "تنغمس انغماسا كاملا في قلب الحياة وتعيش الواقع السياسي ... والاجتماعي والانساني ... مما يجعل رسالة هذا الشكل من الأفلام لها خطورتها ودورها وأهميتها من خلال ما يشاهده المتفرج" ⁶ فكانت بذلك احدى الوسائل الفنية والاعلامية التي تبناها العديد من السينمائيين بغية دعم القضية الوطنية و الترويج لها اعلاميا ودعائيا وطرح افكار ايدولوجية سياسية تهم الشعب الجزائري في تقرير مصيره وكشف الواقع المر الذي عاشه جراء السياسة القمعية والتعسفية تحت السلطة الفرنسية الظالمة.

سار على هذا الاتجاه السينمائي الثوري والسياسي مخرجون كثر جزائريون وأجنيبيون بزعمة ثورية ذات أهداف تحررية حيث "عاجلت أفلامهم الأولى قضية التحرر الوطني وكانت مناهضة للاستعمار بفكر ايدولوجي يعكس توجهها سياسيا مضادا للاتجاه الأيدولوجي الفرنسي تجاه الشعب الجزائري والقضية

الوطنية"7، اذ تناولت أفلامهم قضايا سياسية مهمة تمثلت في ابراز حق الشعب في تقرير مصيره أو تجسيد جرائم المستعمر البشعة والقوانين التعسفية والظلمة التي طبقها فرنسا في حقه والتعبير عن هويته وأصالته ومقوماته بنوع من الفانتازيا في شكل خطاب سينمائي يمتزج فيه الاتجاه الثوري بخلفيات سياسية في الوقت ذاته.

تعد اسيا جبار من بين المخرجين السينمائيين الذين تبنا هذا التوجه حيث حاولت تجسيد سياسة المستعمر الغاشم وفضح مآسيه من جهة والتعني بخصوصية هذه الأمة وبطولاتها من جهة أخرى فتراوحت أفلامها بين الصرخة القاتلة جراء الظلم والسياسة التعسفية والقمعية وبين التعبير عن هذه السياسة وتجسيدها في أفلامها خاصة فيلم نوبة نساء جبل شينوة أو فيلم الزردة واغاني النسيان.

"آسيا جبار هي فاطمة الزهراء الملحيان، من مواليد 1936 بمدينة شرشال، انتقلت الى فرنسا عام 1954 في بداية الثورة التحريرية، ورغم الغربة والبعد عن أرض الوطن، الا أن قلمها ظل حاضرا بحس مرهف وصرخات الألم عن الوضع القاتل الذي عاشه الشعب الجزائري. وبعد الاستقلال عادت الى أرض الوطن لتواصل دراستها، قضت مشوراها الأدبي والفني طوال حياتها بين فرنسا والجزائر حيث سعت الى تناول التاريخ الثوري وقضايا أخرى من خلال الأدب والسينما. إلى ان توفيت في السادس من فيفري عام 2015.

أفنت آسيا جبار حياتها في الكتابة والابداع في مجال الأدب والفن، مما جعلها واحدة من كبار الأدب والسينما في الساحة العربية والعالمية؛ اذ تنوعت انتاجاتها بين الروايات والأعمال المسرحية والأفلام السينمائية، حيث صدرت أولى رواياتها وهي لا تتجاوز سن العشرين

من عمرها المتمثلة في " العطش " و " القلقون" اضافة الى "أطفال الجيل الجديد" و"الجزائر البيضاء".8

لم تقف آسيا جبار عند هذا الحد من الفكر والابداع، بل دخلت عالم المسرح من خلال كتابتها لمسرحية، الفجر الدامي التي أخرجها مصطفى كاتب أنداك، إذ كان المسرح بالنسبة اليها وسيلة نضالية وتحسينا للذات، وتعبيرا عن الواقع المر الذي تسبب فيه المستعمر الغاشم .

دخلت آسيا عالم السينما بروح وطنية وغيره على الهوية التي كانت على وشك الاندثار حيث قامت بتجربة اخراجية متميزة امتزجت فيها خبرتها كروائية وثقافتها التاريخية واحساسها المرهف من خلال تجسيدها لمآثر الشعب والتعني ببطولاته وهويته .ولعل هذا ما تعكسه أفلامها الوثائقية التي تميزت بالصدق والجمالية؛ ومع أن ميولها كان الى الأدب بشكل كبير الا أنها اعتبرت أن السينما وسيلة أخرى للوصول الى أعماق الجمهور والتعبير الصادق عن الواقع المر جراء الظلم وطغيان المستعمر، خاصة وأن انتاجاتها كانت في فترة عرفت فيها السينما الجزائرية أوج عطائها الابداعي واتسمت بالصدق من خلال خطاب سياسي ثوري الشديدهم للهجة ضد المستعمر مما جعلها تتبنى السينما كوسيلة نضالية حية يمكنها ايصال الرسالة الى عدد كبير من الجماهير مقارنة بأشكال الفن والأدب الأخرى.

من بين أفلام الراحلة هو فيلم الزردة واغاني النسيان الذي كان ردا على السياسة الفرنسية خلال فترة ما بين 1912 الى 1942. اذ حاولت فرنسا أن تطبق كل السبل لاستغلال هذا الشعب لتحقيق مطامعها ومصالحها وكذا القضاء على شخصيته ومقوماته بشتى الطرق فكانت هذه السياسة الشنيعة هي المحور الاساسي

الذي تناولته آسيا جبار في فيلمها الوثائقي الزردة واغاني النسيان.

فيلم الزردة و أغاني النسيان هو صرخة وتحسر وألم على هوية أوشتكت على الاندثار جراء طمس المستعمر اذ طغت عليه الصيغة الوثائقية من خلال التسجيل الحي لأشكال المواصل الشعبية والفولكلورية المعبرة عن هوية الشعب الجزائري اضافة الى تصوير الظلم و الطغيان الذي عانت منه هذه الشعوب المستضعفة في الفترة الاستعمارية ما بين 1912 الى 1942 التي عرفت انتهاكا لحرماتها وممتلكاتها وأكثر من ذلك تجريدتها من هويتها ومقوماتها بشتى أشكالها مستعملة في ذلك تقنية التصوير الوثائقي للاحتفالات الشعبية الفولكلورية مصحوبة بالسرد الروائي الذي اتسم بالشاعرية من خلال أداء المخرجة آسيا نفسها بمساعدة مالك علولة.⁹

اعتمدت آسيا في فيلم الزردة على وثائق وصور حقيقية حية تناولت أحداثا مهمة في الفترة الاستعمارية منذ سقوط حكم مولاي حفيظ بالمغرب في أواخر عام 1911 وفرض فرنسا انتدابها على شمال افريقيا- المغرب والجزائر وتونس- ثم ركزت على أحداث مهمة تخص مرحلة ما بين 1912 الى 1942 حيث اعتمدت على الارشيف كمادة لها لإبراز العديد من الحقائق منها افتتاح المسجد ببائيس والتعبير عن سياسة الاستيطان للحكومة الفرنسية في الجزائر من خلال ابراز العديد من الصور مثل: زيارة الوفد البرلماني الفرنسي الى الجزائر، واستغلال ومصادرة املاك الشعب الجزائري للخدمة مصالحها، والحكم على الآخرين بالتجنيد الاجباري والأعمال الشاقة خلف البحر المتوسط عن طريق القرعة ،كل ذلك شكل سياسة تعسفية قمعية في حق الشعب الجزائري التي لا تمت بأي صلة بالإنسانية

والعدالة.فاستعانت آسيا بتلك الصور على اختلافها فتوغرافية ومتحركة معتمدة على وثائق تاريخية مصورة ومحفوطة في الارشيف.

وفي صناعة هذا الفيلم اعتمدت على تقنية المونتاج والتعليق بأسلوب شاعري لتصور للمشاهد كل أشكال الانتهاك والاهانة والاحتقار من خلال السياسة الظالمة لفرنسا في حق الجزائريين ومزجت تلك الصور الوثائقية بصور العادات والتقاليد والأشكال الفولكلورية حيث أضفت عليها حركة سينمائية من خلال المونتاج والتعليق على الاحداث التاريخية المصورة ووصف تلك الماسي بصوت شاعري مليء بالحسرة والالم لتجعل من خطابها السينمائي خطابا ثوريا أيديولوجيا يثبت الهوية والذات من جهة ويفضح سياسة المستعمر من خلال تلك الوثائق الحية من جهة اخرى.

يلحظ المشاهد لفيلم الزردة منذ الوهلة الأولى توجه آسا جبار الساعي الى طرح موضوع يمتزج فيه الجانب الثوري والتاريخي والسياسي سواء من خلال التعليق المدمج في شريط الصوت أو من خلال اللقطات المتتالية في شريط الصور حيث تستهل فيلمها بسينوبسيس يعرف عن فكرة الفيلم بالصورة والصوت اذ يظهر مدجا في الجنيريك باللغة الفرنسية بينما تردد محتواه بالصوت باللغة العربية فتقول:

" في مغرب أخضعوه نهائيا وأحمد صوته توافد عليه سيل من المصورين يلتقطون صورا لنا، الزردة هي هذا الحفل المشرف على الموت نمتلكه ويدعون ادراكه برعم الصورة التي قدموها ورغم نظرهم القاتلة حاولنا أن نزيح اللثام عن وضع احتقروه فاندفعت أصوات مجهولة فرضت نفسها كانطلاقة لروح المغرب الموحد لماضيها"¹⁰.

يبدأ الفيلم بصورة امرأة ملثمة أرادت المخرجة من خلالها التعبير عن الأصالة بالصورة والصوت اذ تظهر هذه الصورة مرفقة بصوت آسيا في التعليق والسرد بلغة اتسمت بشكلها الشعري فتقول:

"الذاكرة جسد امرأة ملثمة عينها الطليقة وحدها تركز حاضرا" يليها بعد ذلك مجموعة من الصور المعبرة عن احتفالات الزردة المعروفة في مختلف اقطار الوطن علق عليها مالك علولة قائلا:

"بعد كل ما مضى والماضي يبقى من أفراح أجدادنا وبعد أفراحهم تبقى هذه الصور"

إن بداية فيلم الزردة، هي تعبير عن أصالة هذا الوطن وهويته، فمنذ الصور الأولى، نلاحظ اهتمامها بخصوصية الشعب الجزائري والمغربي، وأكثر من ذلك هو تصويرها لمختلف أشكال هذه المواويل والزردات المعروفة في مختلف أقطار هذا الوطن، انما وبكل بساطة تحاول التعريف بوطنها من خلال ابراز هويته.

بعد ذلك تسرد مجموعة من الأحداث التاريخية في الفترة الاستعمارية منذ 1912 حتى 1942 اذ صورت بشاعة المستعمر وعبرت عن التقتيل والعنف بالصورة الحية والصوت الشعري في نوع من الصرخة والألم لتعبر عن واقع حمله الشعب الجزائري في وجدانه طيلة فترة الظلم والمهانة. فتراوح الفيلم بين صورة المواطن الجزائري الذي يعيش حياة الظلم والانتهاك من خلال الصور الوثائقية التي تجسد سلب املاكه واستغلالها لمصالح المستعمر وبين صور وثائقية أخرى تعبر عن حياة الترف التي يعيشها الفرنسيون على حساب الحرمان والقهر الذي يعيشه الشعب الجزائري كما عبرت من خلال التعليق والسرد بأسلوب شاعري، شكل خطابا ملئه الحسرة والألم

على الوضع القاتل جراء هذه السياسة الاستعمارية الظالمة .

ان جوهر فكرة وموضوع هذا الفيلم هو كشف المعاناة والصراع الداخلي الذي عاشه الشعب في تلك الفترة -1942/1912- القائم بين الحفاظ على هوية المجتمع الجزائري أو الرضوخ للسياسة الظالمة للمستعمر الذي صورته آسيا في أحداث الفيلم بشتى أشكال التقتيل والانتهاك من خلال عرض صور سلب أملاكنا وتحويلها الى فرنسا وكذا التجنيد الاجباري للمواطنين والحكم على الآخرين بأعمال شاقة لكي تبني فرنسا على ظهورهم مشيدياتها؛ هذا وقد وردت مقاطع سردية بالصوت على لسان المعلق اتسمت بالشاعرية وهي كثيرة اذ تعبر عن رفض التواجد للمستعمر على أرض الوطن والرضوخ الى سياسته الرامية الى طمس الشخصية الجزائرية:

("يا فرانس النخلة اللي غرستها في دزائر ما تعطي ثمر، أتركونا في بلادنا نريو وبلادنا ونسقيو نخلنا".
"بالقمع بالقتل بالحجز أخذوا منا هذه الارض بعدما كنا أسياد بلادنا فها نحن أصبحنا عبيدا فيها
نحنقونا وشرونا من كل شيء") 11.

مثل هذه المقاطع الحوارية التي تناولتها الكاتبة والمخرجة في فيلم الزردة هي اشارة واضحة على سعيها منذ البداية على اظهار حقائق حية تعبر عن الظلم والجرائم والمهانة التي ارتكبت في حق الشعب الجزائري. وكانت آسيا جبار في فيلمها الوثائقي تتخذ من المستعمر الفرنسي مجرما سفاحا قاتلا ظالما اذ لم تترك أي سمة الا وجسدها بالصورة والصوت.

هذا وتغنت آسيا برجال المقاومات الشعبية وحرب العصابات التي أنجبت أبطالاً تحدث عنهم

التاريخ من أمثال الامير عبد القادر وعبدالكريم الخطابي وعمر المختار في ليبيا مخلدة لتضحياتهم من أجل الغرة والكرامة والأصالة ضد الاغتراب الدنس الذي طغى على أوطانهم وشعوبهم.

وأخيرا تعد السينما واجهة ايديولوجية ومنبرا لطرح القضايا الاجتماعية والسياسية التي تهم الرأي العام المحلي والعالمي.

تعتبر القضايا السياسية مادة مهمة لصناعة الأفلام السينمائية على اختلافها لذلك عبرت عن تطلعات الشعوب ونظرتهم تجاه الأنظمة السياسية التي تشهدها المجتمعات.

كانت السياسة الاستعمارية لفرنسا في حق الشعب الجزائري هي الأخرى محل اهتمام العديد من المخرجين السينمائيين اذ شكلت مادة خصبة للتعبير عن ردة فعل المواطن الجزائري تجاه الظلم والسلب والانتهاك والقمع والرد على الآخر وتصويره بشئ أشكال الاجرام والتقتيل بأسلوب ثوري ايديولوجي شديد اللهجة.

يعد فيلم الزردة 1982 لآسيا جبار فيلما وثائقيا يعكس هوية الشعب الجزائري ونظراته الأيدولوجية القاتلة تجاه السياسة الاستعمارية المنتهجة في حقه.

صورت آسيا في فيلم الزردة وأغاني النسيان كل أشكال الظلم والمهانة التي عاشها الشعب الجزائري في فترة ما بين 1942/1912 من جهة والممارسات القمعية والشنيعية التي انتهجتها فرنسا في حق الشعب الجزائري فكان خطابها ثوريا بنوع من الحسرة والفتنازيا المضادة للفكر الأيديولوجي لفرنسا وسياستها الاستعمارية من خلال الصور الحية والصوت.

عبرت آسيا عن خصوصية هذه الأمة بالصورة والصوت الشعاري من خلال تصوير أشكال الفولكلور

والمواويل الشعبية المختلفة المعروفة في بقاع هذا الوطن وما ذلك الا تحصينا للذات ضد أهداف فرنسا الرامية الى تشتيت الهوية ومقومات الشعب التي كانت احدى أهدافها المسطرة في سياستها الاستعمارية المنتهجة.

هكذا كان فيلم الزردة وأغاني النسيان لآسيا جبار خطابا إيديولوجيا ثوريا وتوثيقا حيا للتاريخ الثوري للجزائر وموروثها الثقافي والقيمي وأشكال الفولكلور بالصورة والصوت المعبران عن كل ما يجول بجوف نفسية الشعب جراء الفترة الاستعمارية فانسمت أعمالها بالصدق والجمالية في طرح موضوعاتها، وكتب لها أن تكون واحدة من كبار السينما الجزائرية خاصة وأن أعمالها كانت في مرحلة عرفت فيها السينما الجزائرية أوج عطائها الابداعي والفني .

توفيت الفقيدة في شهر فبراير عام 2015 عن عمر ناهز 79 عاما من الابداع في مجال الأدب والفن فرحم الله آسيا جبار وجعلها خير سلف لخير خلف من المبدعين والأدباء والمفكرين.

الهوامش:

1. درية شرف الدين، السينما والسياسة في مصر 1981/1961، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، 1412هـ/1992م، ص6
2. ينظر محمود سامي عطا الله، السينما شابة عمرها مائة عام، مجلة العربي، وزارة الاعلام، الكويت، العدد 439 جوان 1995، ص70.
3. محمد الحسيني، السينما السورية، حصيلة قليلة ولكنها متميزة، مجلة العربي، وزارة الاعلام، الكويت المرجع نفسه ص178.

4. اشرف شتيوي السينما بين الصناعة والثقافة ،دراسة نقدية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط 2008-ص38/39.

5. ينظر جدي قدور الثورة التحريرية في السينما الجزائرية رسالة دكتوراه جامعة وهران 2010/2009.ص48

6. سعد الصالح، فن الاخراج وكتابة السيناريو، دار مجد لاوي للنشر والتوزيع، عمان الاردن، الطبعة الأولى 2010/2009.ص361.

7. ينظر جان الكسان، السينما في الوطن العربي، سلسلة عالم المعرفة الكويت، العدد 1990/51 ص220.

8. <http://elaph.com/Web/Culture/2015/2/981069.html>

9. -فيلم الزردة واغاني النسيان لأسيا جبار، الاذاعة والتلفزيون الجزائري عام 1982.

10- فيلم الزردة واغاني النسيان لأسيا جبار المرجع نفسه.

11-فيلم الزردة واغاني النسيان لأسيا جبار المرجع نفسه.